الرحلات الافريقية القديمة

٣

الرحلات البرتوغالية

ذكرنا في المقالة السابقة ان العرب توسعوا في الفتوحات منذ القرن الثاني للهجرة وامتلكوا كل شواطىء افريقية الشمالية والشرقية والغربية وتوغلوا في داخلية البلاد الى ان ضعفت شوكتهم بفقدان العصبية وضعف شأن الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر والعلوية في بلاد المغرب وخضعوا للدول التركية والتترية حتى سقط مجدهم وتفرقت كلمتهم واشتغلوا بالمنازعات القومية والدينية الى ان اشتد ساعد الاسبان والبرتوغال في الاندلس فطردوا العرب منها · ولما قويت شوكة الافرنج قام البرتوغاليون سنة ١٤٠٠ فجهزوا السفن الكثيرة والمراكب الكبيرة وارسلوها الى سواحل افريقية فطردوا العرب من بلاد السنيغال رشط التاج وكل السواحل الغربية · وكانوا يتنافسون في تحصيل اسباب الفخار والتوسع في الاسفار ويردفون الغزوة بالاخرى حتى ان نساء لشبونة عاصمة ملكهم كنّ يحرضن رجالهن على السفر وجوب البحار وغزو العرب ويدفعن حلاهن عن طيبة خاطرهن الى امراء البحر لتجهيز السفن · وكن يأبين التزوج بمن لا يذهب لغزو العرب وطردهم من بلادهم · ومما ساعد البرتوغاليين على تلك الغزوات البحرية استعمالهم البوصلة (او الحك) لمعرفة الجهات فانها جرأتهم على التوغل في عرض المحيط فاكتشفوا اولاً الجزائر التي على السواحل الغربية حتى رأس الرجاء الصالح ثم اتجهوا شمالاً فاكتشفوا السواحل الشرقية كلها حتى باب المندب وشواطىء حضرموت وخليج العجم ومن هناك توصلوا الى اكتشاف طريق الهند كما سيأتي بيانهُ

ففي سنة ١٤٣٣ اكتشفوا جزيرة ماديرا واسسوا فيها مستعمرات وغرسوا فيها قصب السكر والكرم ودخلوا بلاد غينيا وسنيغامبيا رشط العاج وعصاب وملكوها وزرعوا ارضها واخذوا منها الخشب الى بلادهم

وفي سنة ١٤٤٣ اكتشفوا بلاد السنيغال وسواحل الكرنفو وانجولا وجلبوا منها الارقاء والعبيد السودانيين واخذوهم الى لشبونة وهي المرة الاولى التي رأى فيها اهلها الزنوج وذوي الشعر الجعد والاجسام المطلية بالافاويه والزيوت · واكتشفوا جزائر سانتا ماريا وسانتا هيلانه وفرناندو بو وغيرها · وفي سنة ١٤٥٦ اخذ القبطان بطرس القنطرة بلاد سيراليون من العرب وتألفت فيما بعد في لشبونة شركة برتوغالية لاكتشاف سواحل افريقية كلها

(١) خريستوفوروس كولمبوس مكتشف اميركا (٢) اميركوس فسبوس الذي ادعى اكتشاف البر الاميركي الاعظم قبل كولمبوس وسميت اميركا باسمه (٣) جاك كارتييه مكتشف نهر سنت لورنس في كندا (٤) فرنند كورتز مكتشف برتوغالي (٥) فكودي غاما البرتوغالي مكتشف طريق الهند بحراً (٦) فرنسسكو بيزارو الاسباني مكتشف بلاد بيرو (اميركا الجنوبية) وفاتحها (٧) فرديننند مجلآن البرتوغالي وهو اول من دار حول الارض

مقتطف اكتوبر ١٩١٥
امام الصفحة ٣٥٦

وطريق الهند فجهزت السفن الكثيرة العدد والعدد وامدتها بالرجال والذخائر وكانت تنتقل من بلاد الى اخرى ومن فرضة الى غيرها في السواحل الغربية وتتجر مع اهلها بالعاج والذهب والطيور الغريبة والقرود والطيوب والافاويه واحتكر ملوك البرتوغال لانفسهم تجارة العاج فارسل يوحنا الثاني جماعة من قومه على سفن له الى سواحل افريقية فاكتشفوا في طريقهم جزائر سان توماس والبرنسس وشواطئ العاج ونجريا وسواحل الكونغو وزرعوا فيها القطن واسسوا المستعمرات

وفي اواسط القرن الخامس عشر هاجر الى هذه البلاد اليهود المطرودون من اسبانيا والبرتوغال فاستعمروها واتخذوا العرب والزنوج عبيداً لهم ولم يزل الى الآن في تلك البلاد السحيقة بقية منهم وهم يهود الا انهم اقتبسوا عادات الزنوج الاصليين في معيشتهم

وفي سنة ١٤٧٢ اكتشف القبطان البرتوغالي يوحنا ستنارم بلاد ساحل الذهب فاخذها من سكانها العرب وهاجر اليها البرتوغاليون واستوطنوها وبنوا فيها المدن والقلاع ثم دخلوا بلاد البنيان والكونغو ومنها نقلوا الى بلادهم زراعة الفلفل وغيرها من البهارات والفاكهة . وفي سنة ١٤٨٦ اكتشفوا اقليم البنغال وانتهى الامر ان برتلمي دياز الرحالة البرتوغالي الشهير واصل اكتشافاته جنوباً حتى وصل الى رأس افريقية الجنوبي بعد ما عانى الاهوال من العواصف والانواء وسماه « رأس الاهوال » ولكن يوحنا الثاني ملك البرتوغال ابدله باسم « رأس الرجاء الصالح » . وحينئذٍ تيقن البرتوغاليون ان في وسعهم الطواف حول افريقية بحراً اذ عرفوا ان هذه القارة جزيرة او شبه جزيرة . وفي سنة ١٤٩٥ دعا ملك البرتوغال القبطان الشهير والرحالة العظيم فاسكو دي غاما للسفر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فجهز له اسطولاً من المراكب الكبيرة واسده بالمال والرجال فخرج فاسكو من مرفإ لشبونة باحتفال عظيم وشيعه الملك وعظماؤه ورجال بلاطه بين هتاف الرجال وزغردة النساء . فاجتاز السواحل الغربية واستولى على جميع السواحل والبلاد التي مر عليها في طريقه حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح . ثم تحول بسفنه شمالاً واستولى على السواحل الشرقية فرسا اولاً عند بلاد سماها نتال اي المولد باسم المدينة التي كانت مسقط رأسه واخذ بلاد كفرورريا واكتشف في طريقه مدغشكر وجزائر القمور وانجوان ولم يزل يسير شمالاً محاذياً السواحل حتى وصل الى بلاد سفالة (موزمبيق) فاحتلها ورفع عليها العلم البرتوغالي وهناك اكتشف مناجم الذهب القديمة التي كانت معروفة منذ القدم عند المصريين والرومان والعرب . ويقال انها بلاد توشيش التي ورد ذكرها في سفر الملوك وقيل ان سليمان

الملك كان يأتي منها بالذهب والفضة والقرود والعاج والطواريس (ملوك اول ص ١٠) وبنى فاسكو في اكثر البلاد التي احتلها القلاع والحصون ووضع فيها بعض الحامية من رجاله وجعلهم وكلاء له لشراء الذهب والعنبر والمعادن والعاج وقد وجد الرحالون البرتوغاليون في اسفارهم هذه كثيرين من تجار العرب عند شواطئ التنال والترنسفال وموزمبيق يحملون تراب الذهب في الاكياس و ينقلونها الى سفنهم و يأخذونها الى زنجبار وعمان وشبه جزيرة العرب

ثم استولى هذا القبطان الشهير على كل الممالك العربية الافريقية الشرقية وهي قطوة وسمداني وشيكوه وبثة وكاوه وبنجاني وملندة وكلها كانت ممالك زاهرة عامرة تحت حكم سلاطينها المستقلين من العرب وقد ذكر ابن بطوطه اكثر هذه البلاد وحكامها في رحلته المعروفة

ولما وصل القبطان ورجاله الى مصب نهر زمبيسي الكبير ركبوا فيه بسفنهم وبنوا على ضفتيه القلاع والفرض واقاموا فيها اناساً من قومهم للمحافظة عليها وفتحوا اسواقاً عظيمة للتجارة

ثم استولوا على بقية الشواطئ الشرقية فرسوا في ممبسة وكانت وقتئذٍ مدينة تجارية عامرة فسر البرتوغاليون بها لانهم لم يروا مدينة عظيمة مثلها وكان فيها بيوت فخمة وقصور ومبانٍ فاخرة واسواق عظيمة . قال ملطبرون في جغرافيته القديمة « ان اهالي ممبسة كانوا قبل دخول البرتوغاليين من قبائل العرب العرباء وكلهم على حضارة يعيشون بالبذخ والترف وعندهم بعض العلوم والصنائع وملمون باحوال التجارة ولهم فيها طرق مفتوحة في داخلية البلاد وسفنهم تمخر في انهارها وتتجر مع عمان وحضرموت والهند »

ثم استولى القبطان فاسكو على سلطنة ملندة شمالاً وكانت زاهية زاهرة كثيرة المباني واسعة التجارة ورأى فيها جماعة من البنيان وهم طائفة من التجار الهنود فاخذ بعضهم الى سفنه ليدلوه على طريق الهند . وبعد ان استولى على سلطنات لامو وملندة وكلوة ومقدشو وجميع السواحل الشرقية وجزائرها وطد قومهُ اقدامهم فيها فبنوا فيها القلاع الحصينة ولم تزل اثارها باقية الى الآن وعليها كتابات بلغتهم وعلى بعضها كتابات برتوغالية ازاء الكتابة العربية القديمة . ثم واصل دي غاما سفره الى الهند ورسا في سواحلها وجلب منها البضائع ورجع الى بلادهِ . وفي سنة ١٥٠٠ خرج القبطان الينوزا البرتوغالي ببر أكب كثيرة من لشبونه واجتاز بها سواحل افريقية الغربية ثم دار حولها متعهداً اثار من سبقهُ من الرواد وموطداً دعائم المستعمرات البرتوغالية وظل يسير شمالاً حتى اجتاز بوغاز باب المندب الى البحر الاحمر ثم ارتاد سواحل شبه جزيرة العرب بين عدن والشحر وحضرموت ورجع الى بلادهِ

وفي سنة ١٥١٣ استولى البوقرق الاكبر البرتوغالي الشهير على جزيرتي زنجبار وبمبا وكان ملوكها واهلها وقتئذٍ من اليعاربة اصحاب الشوكة والصولة وجرى بينهُ وبينهم حروب عديدة برًّا وبحرًا مدة سنين كثيرة واخيرًا تم النصر للبرتوغاليين ففرضوا على ملوك تلك البلاد الخراج والمغارم ودخلت جميع ممالك العرب في طاعتهم . وكان في السواحل الشرقية بلاد يحكمها مشايخ من العرب بالشورى ولذلك دعاها مؤرخو البرتوغال جمهورية بروا فالزموا اهلها ان يدفعوا لهم كل سنة خمسمائة مثقال ذهب . وكان لملك البرتوغال ايراد سنوي من هذه الممالك العربية يؤخذ ويصرف ثمنًا لجلب البضائع من الهند الى لشبونه . فانفتحت بذلك للبرتوغال اسباب الغنى والسيادة على سواحل افريقية كلها شرقًا وغربًا حتى خليج العجم وعمان والهند . واخذوا عن العرب كثيرًا من العلوم والفنون والصنائع واصول التجارة وعلم اسفار البحر وعرفوا المواقع والمرافئ والخلجان . وقد وصفهم مؤرخو البرتوغال في كتبهم بانهم في سعةٍ من العيش والحضارة وللاطيفهم شوكة وصولة وانهم من ذوي الكرم والثروة . وكان لهم تجارة واسعة مع سواحل العرب وحضرموت والبصرة وعمان والهند وكانت كل سلطنة مستقلة عن الاخرى في احكامها ومعاملاتها

وفي سنة ١٥٧٣ وصلت حملة بحرية برتوغالية واجتازت السواحل الشرقية ودخلت في داخلية البلاد طلبًا لاكتشاف مناجم الذهب وبعد مشقات كثيرة وحروب شديدة مع العرب والزنوج وصلوا الى ماتيكا في داخلية بلاد سفالة (موزمبيق) واكتشفوا معادن الذهب القديمة التي ذكرناها ولكنهم وجدوا الاراضي قاحلة جدباء وايقنوا انهم لا يقدرون ان ينتفعوا منها بشيء لانهم لم يكونوا يعلمون طرق الحفر والنقب الحديثة وليس عندهم آلات للنزول الى اعماق الارض وبلوغ عروق الذهب وكان العامل يشتغل اياما ولا يستخرج من عمله اكثر من خمسة دراهم فتركوا البلاد ورجعوا الى بلادهم

ثم ارسل ملوكهم عمالاً لهم الى تلك الاصقاع بعد ان رسخت اقدامهم فيها وكان اولهم القبطان فرنسز الفارس وامتد حكمهم نحو اكثر من مائتين وخمسين سنة في مسقط وعمان وخليج العجم وعمبسة ولامو وملندة وكلوة وزنجبار وسلطنة ويتو وكل ممالك افريقية الشرقية وجزائرها الى سنة ١٧١٥ حين قام الامام الاكبر سعيد بن سلطان بن سعيد بن سلطان ابن مالك بن ابي العرب بن سلطان بن مالك اليعربي القحطاني النبهاني امام مسقط وعمان الملقب بقيد الارض فاخرج البرتوغاليين من بلاده واجلاهم عن مسقط وخليج العجم ثم جهز السفن العديدة وارسلها مع جيش عظيم من العرب الى زنجبار وبمبا وسواحل افريقية الشرقية

وطردهم من تلك الاصقاع وحاربهم في موانع بحرية ومعارك برية يطول شرحها واخذ البلاد كلها منهم ودك حصونهم وقلاعهم واقام عمالاً لهُ في لامو ومبسة وملندة وبسته من مشايخ آل المذروعي . وفي زنجبار وبمبا اناب عنهُ امراء من آل تيمان ولبثت تلك البلاد تحت سلطة ائمة اليعاربة الى ان قام سنة ١٧٤١ الامام السيد احمد بن سعيد بن احمد بن محمد ابو سعيدي اليمني الازدي جد الاسرة البوسعيدية المالكة الآن في زنجبار وعمان وطرد اليعاربة من عمان وكل شواطئ افريقية ودانت لهُ البلاد كلها وامتدت سلطتهُ من عمان وخليج العجم وافريقية الشرقية حتى جزيرة القمور وشمالي جزيرة مدغشكر . وبعد ذلك انفصلت سلطنة زنجبار عن سلطنة عمان في اخبار طويلة لا سبيل لذكرها الآن

اما البرتوغاليون فتقلص ظلهم من كل البلاد الافريقية الشرقية ولم يبق تحت حكمهم سوى اقليم موزمبيق . وسنأتي في عدد تالٍ على وصف الرحلات الحديثة في اكتشاف افريقية

ديتري نقولا

التتانوس والتلقيح

التتانوس احد الامراض التي تتفشى في ميادين القتال وعلى آثار الجيوش الزاحفة كالتيفويد والتيفوس والكولرا والدوسنطاريا وهي اشهرها . وهو خلل يطرأ على الجهاز العصبي عامة او الحبل الشوكي خاصة يصحبهُ ألم في عضلات البدن كلها . ومعظم الاصابات به تصحب حدوث جرح في اطراف الجسم ولاسيما اذا تعرض الجسم للبرد بعد حدوث الجرح . وقد اكتشف طبيب ياباني ان سبب المرض مكروب يكون في التراب ويتكاثر حيث يجمع زبل الخيل والمواشي . فان هذا المكروب يفرز سمًّا يتصهُ الجرح ويفضي امتصاصهُ الى الخلل المذكور

واول اعراض هذا الداء تصلب العضلات المجاورة للجرح وتشنجها ثم عضلات الفك خاصة معما يكن موضع الجرح من الجسم حتى اعطي التتانوس في الانكليزية اسم lockjaw اي الفك المقفل وفي العربية اسم الكزاز من كزَّ صلب وانقبض . والغالب ان ينتهي هذا الداء بالموت اختناقًا او اعياء

وقد استخدمت علاجات كثيرة لمعالجته فلم تأتِ بالفائدة المقصودة واكتشف مصل مضادٌ لهُ وجرب في الخيل فافاد فائدة كبيرة . اما في الناس فلم يفد فائدة تذكر . ولكن اذا صح ما كتب طبيب اخيراً الى جريدة التندرد الانكليزية اصبح الرجاء في هذا المصل